عروسة النيل

الفصل السادس والثلاثون

بكّرت كاترينا في النهوض من النوم كعادتها ونزلت الى البستان فابصرت فيليس آتيًا الى بيت روفينس فاستوقفتهُ وتوسلت اليهِ ان يكتم ما رأى في الليلة السابقة لئلاَّ يدري بهِ ذووها فوعدها خيرًا ثم انبأها بوفاة نفورس زوجة المقوقس وقال انها ماتت غمًّا وحزنًا. فجزعت وبكت حتى سالت دموعها على خديها وتذكرت احسان المتوفاة اليها وحبها لها واحتفاءها بها واهتمامها بشؤونها فاخذ الطبيب يعزيها بما حضرهُ من الكلام الرقيق وقبل ان فارقها اوصاها بوجوب حرق ثيابها وثياب دورا قائلاً ان جراثيم الوباء تعلق بجميع ما يلامسها ولاسيما النسيج فاذا مسَّ مصاب بهِ ثياب شخص سليم لوثها فانتقلت العدوى اليهِ وانتشرت فقلقت كاترينا واخبرتهُ بانهما حرقتا جميع ما كان عليهما من الثياب في موقد الحمَّام

ولما انصرف الطبيب اخذت تخطر في البستان على غير هدًى مفكرةً في ما آلت اليهِ الحال وحاولت التملص من هذه الافكار فلم تفلح وتمثلت لها المصايب سلسلة بدت اول حلقاتها لعينيها ولا تعلم اين تنتهي وخيل لها ان في الجوّ عاصفة ستنقضُّ على المدينة فتذيق من فيها العذاب الاليم ووراء العاصفة سحابة قاتمة السواد هي الوباء. ولم يخفَ عليها ما كان لها من اليد في جرّ ذلك الخراب المشوم وتلك النوازل المفجعة لكنَّ عليها بعظم الشر الذي جلبتهُ لم يدفعها الى الندم بل هاج حقدها واثار كامن غيظها فاحسَّت بقوة شيطانية فيها تحاول اهلاك مبغضيها وسحق مناظريها فقالت في نفسها كأني أرى اوريون يقاد الى القتل لكنهُ قد يموت قبل ان اطلعهُ على من دبَّر المكيدة لهُ فآخذ بثاري فاذا نجا من الموت عاش فقيرًا اذ لا يصدق ان العرب يردون اليهِ ما غنموهُ من امواله وفي ذلك ما فيهِ من العار والذل فيعلم ذلك الفتى الخائن ان من البنات من لا تصبر على الضيم ولا تطيق الاذى واما باولين ودورا فالتي حفرت الحفرة لاوريون لا يعسر عليها ان تلقيهما في التهلكة

وكان رستم المجوسي ومانداني الفارسية جالسين تحت جميزة كبيرة في بستان روفينس وفي يد رستم وشيعة من الصوف تلفُّ مانداني خيوطها على كرة فرآها الطبيب كذلك فراقهُ منظرها وابرقت اسرَّتهُ وحمد ربهُ على شفاء الفتاة من جراحها ولبث يتأملها ساعة وقد بدت سمات العقل والادراك في عينيها ووجهها ثم دنا منهما وحياهما وقال كيف انتما فقال رستم مثلنا في الصحة مثل السمك في الماء فقال فيليس اياك والوقوع في الحبائل والاشراك فقد يدعوك

هاشم اليهِ في ساعة لا تعرفها ثم ادار ظهرهُ ومشى الى البيت وهو يقول في نفسهِ ليس في هذا العالم ما يشرح صدري اليوم سوى هذين وماري .ولما دخل ابصر هيلانة تهيئُ المائدة للفطور فتضع العنب والتين والرمّان في الصحف امام مجالس الآكلين والدموع تسيل على خديها فعلم انها تبكي اباها فتذكر رسالة روفينس اليهِ وما كتبهُ عن ابنتهِ فوقف يتأمل حركاتها فاعجبتهُ لباقتها وحسن ذوقها واكبر جمال شعرها الذهبي وقد تدلّى على كتفيها كانهُ حبال من النور فقال ليس في اثينا ما هو ابدع من هذا وحينئذٍ تحوّلت هيلانة عن مكانها فرأتهُ واقفاً يتأملها فبدا الاضطراب والدهشة في وجهها فحيتهُ باسمة فاجاب التحية باحسن منها وقال هانذا قد جئت

فقالت الحمد لله فامي في حاجة اليك

فقال اتيتكم امس باخبار السوء واراني بشير الشؤم اليوم

فقالت أفأنت تأتي باخبار السوء قالت ذلك وابتسمت ابتسامة الريب ففكر فيلبس وقال في نفسهِ انها طاهرة القلب سليمة النية كريمة الاخلاق بارعة الجمال ولا غرو فهي ابنة ابويها ثم طفق يحدثها بموت نفورس زوجة المقوقس وما اتفق لها من اسباب الغمّ قبل وفاتها فتأثرت هيلانة عِلماً منها بما سيكون لهذا النبإ من سوء الوقع في نفسي باولين وماري ولم يخفَ على الطبيب علة حزنها فانها لم تكن تعرف المتوفاة فزادهُ ذلك احتراماً لها وعزم من تلك الساعة على مفاتحة امها بشأن رسالة ابيها اليهِ ولحظت هيلانة سكوتهُ فراعها واوجست خيفةً لئلاّ يكون لديهِ نبأٌ آخر مشومٌ فسكّن روعها وقال لا تستسلي لليأس فلا بدَّ من وقوع المصايب وسيوافيكِ المستقبل بايام الصفاء والرغد فانتِ لا تزالين في سنّ الصبوة ألا تثقين بي فاجابت بالايجاب ولما قالت ذلك طلع عليهنّ اهل البيت فانبأهنّ بوفاة نفورس فشهقت ماري والقت نفسها على باولين فاحتضنتها هذه واصفرّت لكن رزانتها عاودتها فلزمت السكوت وهي تسمع تفاصيل الخبر فلما رأى الطبيب منها ذلك التعقل اكبرهُ وعاودهُ اضطرابهُ فلم يكد يتم حديثهُ حتى استأذن في الانصراف وخرج فمرَّ برستم ومانداني فقال رستم ارى الطبيب كئيباً اليوم وعهدي بهِ طلق المحيَّا فقالت مانداني صدقت فلأمر ما تبدَّل وكانا يتكلمان بالفارسية

فقال رستم أصحيح انكِ تستائين اذا دعاني هاشم اليهِ

فقالت نعم فاذا فارقتني يا رستم تكدر صفو عيشي

فقال وما يحزنكِ

فقالت لقد كنت لي صديقاً صدوقاً وانت فارسيٌّ مثلي بلادك بلادي ولغتك لغتي وانت اول من خاطبني بالفارسية بعد موت امي

فقال افهذا علة حزنكِ الوحيدة

فقالت كلاً فانك اذا ذهبت اليوم فلن تعود

فقال فانتِ ترغبين في بقائي معكِ

فقالت ارتاب في ذلك وقد فرحت بلقائك فرحًا عظيمًا ولما قالت هذا صبغ الحياء وجهها فحوّلت نظرها عنهُ

فقال فعلامَ نفترق اذًا

فقالت قد يكون سيدك في حاجة اليك فيدعوك ولا يسعنا ان نبقى عالة على غيرنا امَّا وقد اعتقوني فسأبحث عن عمل اتعيش منهُ ومن كان في قوتك وسنك فلا يجب ان يستسلم الى الكسل

فقال اكره الامور اليَّ الكسل فساعمل واكسب من المال ما يكفي ثلاثة وقد عقدت النية على العودة الى وطني فاشتري ارضًا واعنى بتربية المواشي وعندي من المال ما يكفي ذلك اتعرفين القراءة فقالت لا فقال انا اجهل منكِ بها فاعلمي اذًا ان في منطقتي صكًّا بخط سيدي وتوقيعهِ وفيهِ انهُ مديون لي باحد عشر الف درهم وثلاث مئة وستين درهمًا فما قولكِ ألاَ استطيع ابتياع ارضًا بهذا القدر من المال

فقالت نعم لاسيما في بلاد فارس

فقال اعلمي انني فارقت بلادي منذ تسع سنوات وانا الآن في التاسعة والعشرين وفي قلبي حنين الى وطني وارى زمان العودة اليهِ قد حان فاذا رضيتِ اخذتكِ معي فكنتِ زوجتي وقضينا الحياة في هناء وسرور قال ذلك وقبض على يدها فاضطربت وقالت اني اسيرة فضلك وغريقة معروفك لكني لا استطيع ان اكون زوجتك . فقال مغضبًا وما علَّة رفضك فقد مرَّ بي زمن وانا اعلل النفس بهذه الامنية فالقت يدها على ذراعهِ وقالت بلطف

ما اسرع غيظك انَّ فراقك يؤلمني وبي من الحب اضعاف ما بك ولطالما تمنيت ان اعود الى بلادي معك كزوجتك وكأنك نسيت من انا فماذا يكون من امرك اذا عدت الى قومك واهلك وزوجتك جارية معتقة

فقال أهذه علة إبائكِ وغاب عنكِ انني مجوسي وان الناس في عين المجوسي اكفاء فاعلمي انهُ سيأتي زمان تنسخ فيهِ نواميس هذا العالم الفاسدة فلا يبقى البشر سيدًا وعبدًا بل اخوة لا ميزة للواحد على الآخر وتصير الارض فردوسًا والحياة نعيمًا فتبطل الحروب والخصومات وينتهي الشقاء ولا اخالكِ تجهلين ان رباط الزواج محترم ومقدس عندنا ولو لم يكن لنا من

الطقوس فيهِ ما للنصارى فاذا رآكِ شعبي اعتبروكِ اسيرة حرب لا جارية واعتبروني منقذًا لكِ . ويشهد الله اني لو لقيتكِ تشين تحت نير العبودية لمددت يدي الى منطقتي واخرجت فداءكِ من المال وحملتكِ الى بلادي زوجة لي فاقلعي عن اوهامكِ

فسكتت مانداني لكنها اشارت الى اذنيها المصلوبتين فقال اراكِ لا تملين من القاء العثرات في سبيلي لكن صلم اذنيكِ لم يؤثر في سمعكِ ومن يستطيع تمييزهما بعد ان عقصت السيدة هيلانة شعركِ على هذا النمط ولعلكِ تذكرين نقاب النساء في فارس فانهنَّ متى لبسنهُ لا يستطيع الناظر اليهنَّ ان يرى اذني المرأة فلا يدري اطويلتان هما ام قصيرتان . ثم ضحك طويلاً ضحك الفائز فاخذت هي تبكي حتى اوجعتهُ فقال ما يبكيكِ قولي ولا تخفي عني صغيرة او كبيرة ثم قطن وقال لا تفعلي فقد ادركتُ علة حزنكِ وذلك ما حدا بي الى التردد والاحجام حتى كدت اخسر راحتي واضيع سعادتكِ فكيف تلامين على ما جرى رغمًا عنكِ وانتِ جارية صغيرة السنّ لا قوة لكِ ولا عضد وحسبكِ ان رجلاً ساذجًا مثلي يرى وجه الصواب في الامر ويعلم انكِ بريئة من كل ذنب فاعلمي انني نسيت هذا الامر وسأنساهُ الى الابد . فامسكتْ يدهُ وقبلتها وقالت

— انت خير الناس يا رستم وستباركك امي من قبرها فانا في يديك ورهن اشارتك فقد كان الامر كما قلت فاساءوا اليَّ وانا فتاة قليلة الدربة معدومة النصير وليس لي من استند اليهِ وارى الماضي كحلم مزعج انقضى الآن

— فقال صدقتِ فسنعود الى بلادنا ونمتع العين برؤية تلك المناظر البديعة التي نهيم بها ونذكرها في غربتنا وكما ان الامّ لا تقلع عن حب ابنها اذا رزقت غيرهُ فتحب الاثنين كذلك انتِ فقد احببتِ واحدًا ولكن في استطاعتكِ ان تمنحيني جزءًا كبيرًا من حبكِ

فقالت ان ما في فؤادي من الحب والاخلاص هو لك وحدك فقط

فقال هذه اسعد ساعات حياتي فقد جلست تحت هذه الجميزة رجلاً فريدًا وحيدًا غريبًا وساقوم من تحتها خطيبًا لاجمل فتاةٍ في العالم وهكذا جلسا يتحدثان غير حافلين بالحرّ الشديد وهو يطرح عليها الاسئلة التي يسألها المحبون فكفّت عن الخياطة واندفعت بكليتها اليهِ تصغي الى كلامهِ وتجيبهُ اجوبة الحبيب المخلص

الفصل السابع والثلاثون

لم تقعد شدة الحرّ عبادة عن متابعة عملهِ فقضى النهار يطوف في قصر المقوقس وهو يقلب ما فيهِ من متاع ورياش لعلَّهُ يعثر على ما يؤيد التهمة على اوريون فادهشهُ ما رأى من

الحلى والجوهر والتحف النادرة واكبر ما في البيت من الاثاث الكثير الفاخر واعجبتهُ روائح الطيوب الغالية في غرفتي نفورس وابنها فايقن ان هنالك من الثروة ما لم يحلم بهِ عربي في مصر. وكان الترجمان يعرّب لهُ ما يجدهُ من العقود والصكوك والالواح فلم يكن فيها جميعاً ما يطلبهُ حتى وصلا الى غرفة اوريون فتناول عبادة بعض الالواح المطروحة في ارض الغرفة ودفعها الى الترجمان فاذا في واحد منها ما يأتي

من اوريون بن المقوقس الى باولين ابنة توما سلام

انهُ يستحيل عليَّ الآن الاشتراك في انقاذ الراهبات فلا تلوميني واعلمي ان سموّ غايتكِ وغيرتكِ المحمودة على بنات جنسكِ المظلومات يكفيان لـ ٠٠٠٠ وكانت الكلمات بعد هذه العبارة ممحوة لا تمكن قراءتها فلما وقف عبادة على مغزى الرسالة دسّ اللوح في جيبهِ وعزم على اتخاذ حجة على كاتبهِ ولم يكن يجهل ما بين الفتى وباولين من الربط وانهُ وصيها والقيّم على اموالها فارتأى أن يلقي القبض عليها فيستنطقها لعلَّها تبوح ببعض السرّ فيأتي كلامها مصدقاً لتهمة البطريرك التي اتهم اوريون بها من سرقة الزمردة والسعي في انقاذ الراهبات لكنهُ اجلّ القيام بهذا العمل ريثما يفرغ من التنقيب في قصر المقوقس فاسرع الى الخزينة مستصحباً نيلس وهناك امر باخراج عقود البيع والصكوك والنقود وحملها على مركبات وامر بنقلها الى الفسطاط ولم يذق ذلك النهار بطولهِ طعاماً ولا شراباً خشية ان يفوت الوقت فلما فرغ من عملهِ جلس ينتظر مجيء مطران منف اذ جاء اليهِ خبر عودتهِ من الصعيد حيث لقي البطريرك بنيامين ونصَّ عليهِ واقعة الحال وتلقى اوامرهُ بشأنها وعهد اليهِ البطريرك بهمة سريعة الى عمرو او وكيلهِ . فلما رجع الى منف عوّل على لقاء عبادة فآنس من نفسهِ ضعفاً وتعاساً فنام على نية ان يفيق بعد ساعتين لكنهُ ابطأ في النهوض واعترتهُ حمّى واصابهُ عطش شديد فارتاعت مديرة بيتهِ وبعثت خادمهُ الى الطبيب فيلبس يدعوهُ لعيادة سيدها فرجع الخادم وقال ان فيلبس غائب عن منف وذلك ان هاشماً ارسل يستدعيهِ الى جدّة لتطبيب ابنهِ المريض

وفي الغد جاءت مارتينا زوجة يوستينوس الى بيت روفينس فلقيتها النساء بالترحاب ولمَّا ابصرت باولين سحرها جمالها وخلب لبُّها لطفها ووقارها فعطفت عليها تحدثها وكانت تعرف ابويها وقد لقيتهما ايام عزها في القسطنطينية فاطنبت في مدحهما والثناء عليهما ثم اتت على ذكر اوريون فاعربت عن ميلها اليهِ واحترامها لهُ ووصفت ما لقيهُ من الحفاوة والاكرام في العاصمة وما اصابهُ من الفوز على جميع شبّان تلك المدينة وافاضت في الكلام حتى مالت اليها باولين فاتقى حذرها وصارتا تتكالمان كما تتكالم الصديقات وجاء من يدعو باولين فنهضت وودعت

مارتينا قائلة سنلتقي قريباً ان شاء الله وساسعى بنفسي اليكِ فانا الصغرى ومن واجباتي السعي لزيارتكِ ولما خرجت صاحت مارتينا لله ما اجملها فهي ابنة ابويها ولم تقع عيناي على اجمل منها وقد زيَّنها الباري بالاخلاق الكاملة والاوصاف الباهرة ثم التفتت الى كاترينا وقالت لقد كذب من نقل اليَّ اخبار السوء عن هذا الملاك فهي جوهرة كريمة ودرة يتيمة ولا يخفى عليَّ الآن علة كرهكِ لها فانا نبصر الاشياء كما نروم ان نبصرها لا كما هي ثم تنهدت وقالت في نفسها يالسوء بخت دورا فلا يسعني الاَّ الاعتراف بميزة باولين عليها فانَّى لدورا ان تناظرها. وحينئذٍ اندفعت كاترينا تدافع عن نفسها قائلة ان باولين مثالة متحجرفة رغماً عمَّا فيها من الاخلاق الطيبة والمزايا الشريفة فاعترضتها هيلانة وتولَّت الدفاع عن صديقتها كانها لبوءة تدافع عن شبلها ولم تكد تفوه ببعض كلمات حتى سمعن جلبة وضجة في الدار ودخلت عليهن مرضع باولين وهي تنوح وتلطم خديها فقالت

— وامصيبتاهُ فقد جاء العرب وهم يريدون القبض على حبيبتي باولين وزجها في السجن.

فصعقت النساء لهذا الخبر وجزعن جزعاً شديداً فصاحت مارتينا

— تبًّا لهذا البلد أمثل هذا الملاك يسجن فيهِ وليس بين اهلهِ من يقول كلمة ايسرقونها حافية في الشوارع والازقة كأنها من القتلة ونحن قعود لكن سابذل ما في وسعي في اسعافها فاسرعي يا كاترينا ومريهم يأتوا بمركبتكِ ولا تحملقي بعينيكِ كالمتوهة فاركضي وافعلي ما قلتُ. ثم مدَّت يدها الى كيس النقود وقالت الحمد لله فهذه لغة يفهمها جميع الناس وساكلمهم بها ثم نزلت الى الدار ودعت رئيس الجند فاسرَّت اليهِ شيئاً فاومأ بالقبول وامر ان يحملوا باولين في المركبة ووعدها بالاحسان الى الفتاة في سجنها واذن لمرضعها بمرافقتها امَّا باولين فتلقت الخبر بسكينة تامَّة كعادتها ولم يبدُ على وجهها شيء من الاضطراب حتى اذا ما انطرحت النساء عليها يقبلنها انهمرت الدموع من عينيها فسألت الترجمان عن علة القبض عليها فقال ان المطران يتهمكِ بالاشتراكِ في تسهيل السبيل لفرار الراهبات فدنت حينئذٍ من زوجة روفينس وقالت احذري كاترينا فقدتمَّت بنا وجلبت علينا هذا الشرّ العظيم اما انا فلن افوه بكلمة ولو قطعوا رأسي ثم ودعتهما وقبَّلت ابنتها هيلانة وشكرتهما على معروفهما وفضلهما واوصتهما خيراً بماري وقالت اذا جاء ابي فبلغاهُ سلامي وليحبَّ اوريون كابن لهُ وقولا لهما انني احببتهما الى آخر نسمة من حياتي فالوداع الوداع يا خير الصديقات وارادت كاترينا ان تدنو منها لتودعها فقبضت مارتينا على ذراعها واوقفتها قائلة ففي مكانكِ فليس لكِ نصيب في هذا العمل فبين هذه القلوب الطاهرة من الروابط ما لا يجد مكاناً من فؤادكِ. ولما طال زمان الوداع امر الرئيس بالاسراع والمسير

فتعلقت ماري بباولين واصرّت على مرافقتها الى سجنها وهي تبكي من كبدٍ مقروحة فدفعتها باولين برفق بعد ان قبلتها مرارًا ثم ركبت المركبة فتبعتها كاترينا وقالت اليس عندكِ ما تقولين لي فقالت شكرًا لكِ على ما فعلتِ من اعارتي المركبة التي تحملني الى السجن ذلك السجن الذي ازج فيهِ بفضل خيانتكِ فاذا كنتِ بريئة مما اتهمتُكِ بهِ فاغفري لي والاَّ فقصاصكِ اشدّ من عذابي

الفصل الثامن والثلاثون

ولما رجعت كاترينا الى بيتها انبأت امها بما اصاب باولين فشقّ الخبر عليها وبكت حزنًا وغمًّا فقالت لابنتها يجب علينا ان نهتم في تخفيف بعض عذابها واسعافها في سجنها وسابذل جهدي في اعانتها على احتمال مصيبتها بالصبر وسارسل اليها الطعام من بيتنا فان طعام السجون لايؤكل. ثم اخذت تندب سوء حظ تلك الفتاة وتدعو لها بالخلاص العاجل من السجن والاسر اما كاترينا فكانت كمن يتقلب على الجمر فلم تذق طعم الراحة بعد الذي شهدتهُ وتالهامن تفريع ضميرها عذاب شديد فطفقت تدور في البيت كالحائرة وهي لا تهتدي الى ما تفعل الى ان مضى اكثر الليل وحاولت النوم فلم تستطعهُ لان الارق والاضطراب نازلاها فاقلقا بالها وحرماها الراحة فخرجت عند الفجر الى الشرفة وجلست على كرسي فيها واطلّت على النهر امامها تتأمل السفن والمراكب الكثيرة واطلقت لافكارها العنان وفيما هي كذلك رأت جنازة يتبعها عدد كبير من الخلق ثم تلاها اخرى فاستولى الرعب عليها واستحوذ عليها القلق فاطرقت خوفًا وخشيةً وخيل لها ان احدى الجنازتين لها ورأت امها ميتة وقد خلفتها فريدة وحيدة لا انيس لها ولا صديق كأنها شجرة اقتلعت جذورها او ورقة مطروحة على سطح اليمّ وحينئذٍ خطر ببالها ما تلقتهُ في المدرسة وما سمعتهُ في الكنيسة عن عقاب الاشرار وقاعلي الاثم وقتلت لها جهنم مأوى الخطأة وبحيرة النار المحرقة حيث يطرح القتلة والمراطقة وشهود الزور تخفق قلبها جزعًا وتمنت لو تبتلعها الارض فتخلص من شقائها ثم رفعت رأسها وصاحت كمن اصابهُ سهم اذ رأت جهنم فاغرةً فاها والنار تنبعث منها فتتصاعد السنتها في الجوّ حتى يغص بها وابصرت الدخان يلتفّ غيومًا تدور في الهواء وتنتشر في الفضاء وكأن اللهيب يعمل على ابتلاع المدينة والنهر وما حولها وسمعت اجراس الكنائس تقرع ورأت الوف السكان يتجمهرون في الشوارع وقد علت جلبتهم واختلطت اصواتهم بازجها فعقعة الاسلحة حتى يخال السامع ان الارض زلزلت زلزالها فارادت ان تقف على جلية الخبر فاطلت على الشارع وانصتت فلم تسمع سوى كلمات متقطعة من مثل قصر الوالي — العرب — المتوتس — اوربون — النار — اطفئوها — انقذوا البيت وحينئذٍ تاداها البستاني

من اسفل وقال لقد احترق القصر فلينقذ الله المدينة فتخاذلت ركبتاها ومدّت يديها تطلب ما تستند اليهِ والحال طوقتها ذراعان والتفتت وابصرت امها وقد اسندتها الى صدرها

الفصل التاسع والثلاثون

تداعت اركان قصر المقوقس فاصبح بعد العز والرفعة انقاضاً ورماداً ولم يبقَ من بيت زعيم المصريين سوى طلل بالٍ لبس ثوب الحداد على اهلهِ الغابرين واشتمل رداء الحزن على ما حلّ بهم من المصايب والاهوال واندلع لسان اللهيب فامتدّ الى الجزء الشمالي من المدينة والتهم مساكن الفقراء المجاورة للصحراء فبات مئات منهم بدون مأوى لكن عبادة ورجالهُ لم يألوا جهداً في اخماد النار فانقذوا ما بقي من منف واعانهم المصريون من اهلها وكلهم يعجب ببسالة العرب وحسن تدبيرهم وشدة باسهم فانهم كانوا ينازلون النار بقلوب لا تهاب الموت ولا تحسب لهُ حساباً

وتمّ لعبادة ما تتناهُ فانهُ احرق القصر بعد ان نقل الى القسطاط ما نقل من المال والتحف والعقود والصكوك . وفي ذلك اليوم عينهِ وصلت قافلة الى المحطة الاخيرة بين البحر الاحمر وحصن بابل وكان في القافلة اوريون ابن المقوقس وقد احاطت بهِ كوكبة من الفرسان تولّت اسرهُ وحراستهُ واتت بهِ الى القسطاط ليحاكم على ما اتهّم بهِ وكان برفقتهم يوستينوس وابن اخيهِ الضابط الاسير . ورأى اوريون اللهيب يتصاعد من جهة منف وقد احمرّ الافق فصار بلون الدم فلم يخطر ببالهِ انهُ بيتهُ وقصر اجدادهِ فلما بلغوا المحطة ترجل وفعل رفيقاهُ فعلهُ واقتدى بهم الجند وعرجوا جميعاً على الخان

وتحرير الخبر ان يوستينوس واوريون تبعا عمراً حتى ادركاهُ فرفعا اليهِ امر الضابط الاسير فوعدهما خيراً وطيب خاطر يوستينوس واعطاهُ وصاةً الى رئيس العمال حيث كان ابن اخيهِ يقاسي العذاب ويكرّع مرارة الاسر فأسرع الاثنان الى شاطئ البحر الاحمر فالفيا الاسير في غمرات المنون وقد انهكهُ الاعياء والمرض فنقلاهُ من مكانهِ واقاما على العناية بهِ حتى ردّا اليهِ بعض قوتهِ واصبح يستطيع السفر فازمعوا على الرحيل والعودة الى منف. وفيما هم عائدون بسط اوريون لصديقهِ حقيقة حالهِ واطلعهُ على حبهِ لباولين ناسباً جميع ما فيهِ من المحامد الى حسن ظنها بهِ وشدة تأثيرها فيهِ الى ان قال ولا اراني احب دورا كما تحبني فاذا تزوّجت فباولين زوجتي لا سواها والذي يسوءني ان ثروتي تعل يديّ عن العمل ويودي لو استطيع التخلص منها اذاً لكنت اتجر بما منحنيهِ الله من المواهب فاكتسب ثقة الناس واحترامهم باعمالي لا بمقامي وجاهي ومالي. فوقع كلامهُ في نفس صديقهِ وقعاً حسناً لكنهُ اسف لخيبة امل نسيبتهِ وقال في نفسهِ سنعود ادراجنا الى القسطنطينية ومعنا اثنان في مقتبل العمر

يجب علينا تعزيتهما والعناية بهما هذا الذي كان اسيرًا تعيسًا وتلك التي برّحها الوجد والهيام

ولما دخلوا الخان وجلسوا الى الطعام واحاط الفرسان باوريون احاطة السوار بالمعصم لئلا يفلت من ايديهم اقبل عليهم فيلبس الطبيب فانهُ كان يقصد جدة لمداواة ابن هاشم كما تقدم فمضى اليهِ امر اوريون فشقّ عليهِ الخبر وساءهُ ان يبتلي هذا الفتى بالمصايب فاستأذن القائد وجلس بجانب اوريون فحدّثهُ بما كان من احتلال الجند القصر فغضب اوريون وعزم على التظلم الى عمرو ثم نعى الطبيب اليهِ امهُ فاخذ الحزن منهُ كل مأخذ واغمي عليهِ واسرع اليهِ من حضر وعالجوهُ حتى افاق وهو ينوح ويبكي من فؤاد محروق فرثى الجميع لمصابهِ لا سيما العرب لما اعتادوهُ من اكرام الوالدات فابتعد الجند عنهُ احترامًا واغتنم الطبيب تلك الفرصة فاخبر اوريون بفرار الراهبات ونجاتهنّ وموت روفينس ولم يكن يعلم بحرق القصر وسجن باولين فلم ينبئهُ بهما

وبعد ان استراحوا ساعة نهضوا الى خيلهم فركبوها واستأنفوا المسير الى الفسطاط واوريون كالذاهل لا يعي على شيء وبدت جميع مصايبهِ هينة في جنب خسارة والدتهِ فلم يعد يكترث لمنزلهِ اعادهُ العرب اليهِ ام غنموهُ ونسي ما يتهدد حياتهُ من الخطر والعقاب وكأن قلبهُ لا يسع سوى ذكرى امهِ والحزن على موتها بعيدة عنهُ وفيما هم في بعض الطريق طلع عليهم نفر من جند الفسطاط جاؤا لملاقاتهم فانبأوهم بخبر الحريق فدنا الترجمان من اوريون وترجم لهُ الخبر وقال لا تزال النار تعمل في المدينة فزادت لوعتهُ واحسّ ان جبلاً هوى عليهِ فسحقهُ فاخذ يندب سوء حظهِ ويبكي منزل آبائهِ واجدادهِ ومباءة مجدهم ومفخرهم وعزّ عليهِ ان يخسر اباهُ وامهُ ويبيت بدون مأوى طريدًا اسيرًا لا منزل لهُ ولا سقف يظلهُ كأنهُ في سفينة ضاعت دفتها فعبثت بها الريح والامواج واصبح راكبها عرضة للغرق فقال في نفسهِ لذنب ما يقتصّ مني الله فهل اقترفت هذا الذنب او اخطأ اسلافي في عينيهِ فاوقع بي وانتقم لذنوبهم مني وشاء ان ينفي هذا البيت فكنت الفرع الاخير فيهِ ثم عاودتهُ شجاعتهُ فقال ولكن على المرء ان يسعى الى الخير جهدهُ وسأظلُّ سائرًا في السبيل الذي اختطتهُ لنفسي فلا اخشى عدوًّا ولا ارهب شرًّا والامر لله ثم ذكر باولين فهزّهُ الشوق اليها وتمنى لو يستطيع لقياها فيضمها اليهِ قبل مفارقة الحياة

ولما بلغوا الفسطاط اخذوهُ الى بيت القاضي عثمان وكان ساعتئذٍ في مجلس عقدهُ عبادة للنظر في امر منف ولم يخفَ على عبادة ما كان الباقون يضمرون لهُ من العدوان لا سيما القاضي وخالد امين بيت المال فهذان لم يكتماهُ ما كان يخالج فؤاديهما من سوء الظن بهِ

فوقف القاضي وقال لقد جرت يا عبادة واسرفت فعاقبة عملك تعود عليك ونحن جميعاً براء مما فعلت فلا ناقة لنا ولا جمل في هذا الامر. فاجاب عبادة وقال فعلت ما فعلت واني المسئول عن عملي وقد امرت باعداد الملاجئ للدين باتوا بدون مأوى ويشق عليَّ ان تروا رأيكم هذا فيَّ بعد ان ابليت البلاء الحسن فالتيت بنفسي في المهالك سعياً في انقاذ المدينة فافعلوا ما يروق في اعينكم . وبعد الاخذ والردّ اقرّوا على تاجيل الحكم في الامر الى ان يوافيهم كتاب الخليفة من المدينة ردًّا على شكاويهم التي رفعوها اليهِ . ثمَّ نهض الجميع وانصرفوا وتركوا عبادة يحرق الارض ويقول في نفسهِ سألزم السكينة الى ان تقع الضربة القاضية في المدينة . . . وحينئذٍ دخل عليهِ رسول فحيَّاهُ وانبأهُ بأمر اوريون وعودة الفرسان وقال لقد اخذوهُ الى بيت القاضي فصاح عبادة مغضباً وعلامَ لم يأتوا بهِ الى بيتي واني عامل الخليفة في هذه الديار فهم يخرجوهُ من بيت القاضي ثم قام الى بيتهِ وجلس ينتظر مجيئهم لكنهُ لم يلبث طويلاً حتى وافاهُ احد رجال القاضي فقال امرني القاضي ان اقرئك سلامهُ واقول ان الخليفة اقامهُ قاضياً على مصر وخوَّلهُ حق النظر في هذه الامور فاذا شئت ان ترى الاسير فني بيتهِ او في سجن منف حيث يكون محبسهُ . فوقع هذا الكلام من نفس عبادة اسوأ وقع فهبَّ من مكانهِ واسرع الى بيت القاضي فلقي من عثمان سكينة وثباتاً اقعدا ما ثار من غيظهِ وحدتهِ فاخذ يعيد على مسمعهِ التهم الموجهة الى اوريون فقال القاضي سمعتها كلها وسينال الجاني عقاب ما جنت يداهُ فاذا كان اوريون انزلت بهِ القصاص ولو مكرهاً فقد عرفت اباهُ من قبلهِ خير معرفة فرأيت منهُ رجلاً فاضلاً كاملاً . فأصرَّ عبادة على انزال العقاب باوريون حالاً واصرَّ القاضي على محاكمتهِ حتى يتضح ذنبهُ فاذا ثبتت جريمتهُ عوقب والاَّ اطلقوا سراحهُ . فاخذ عبادة يصيح والقاضي ساكت لا يتبس ببنت شفة وكأنما هو جبل لا يتزعزع فلما فرغ عبادة قال القاضي

— لم يسمع بعد في الاسلام ان رجلاً كاوريون خدم الاسلام والمسلمين تنزع املاكهُ لمجرد شبهة عزيت اليهِ فاذا فعلت كما تقول فاين عدل الاسلام . فقال عبادة ولكن البطريرك اتهم اوريون بذنوب اقترفها ولم تنزع املاكهُ منهُ بعد وانما ضبطنا امواله ووضعناها في مكان حريز حرصاً عليها من الضياع وفضلاً عن ذلك فبيدي لوح مكتوب بخط اوريون يثبت جريمتهُ واشتراك خطيبتهِ باولين في الجناية وقد امرت بحبسها وساتولَّى استنطاقها بنفسي وكأنك نسيت او تناسيت اننا نفر قليل في هذه البلاد فاذا تجرأ احد الاهالي على قتل جنودنا كما فعل ابن المقوقس فانَّى لنا بمناوأتهم ودفعهم عنا اذا انتقضوا علينا وحاولوا سفك دمائنا

فقال القاضي لستُ اشدَّ مني اهتماماً بمعاقبة الجاني لكني لا آذن بعقابهِ قبل ان اتحقق

جنايتهُ وانهُ الفاعل فاذا اردت استنطاق باولين فافعل اما انا المحاكمة فلن يتولاها غيري ولا اتنازل عنها لاحد فلم يرَ عبادة بدًّا من موافقتهِ

الفصل الاربعون

وبعد ظهر ذلك اليوم امتطى عبادة جوادهُ وسار الى سجن منف ولما وصل الى المدينة سأل عن المطران فقيل لهُ انهُ مات مطعونًا في الصباح فساءهُ هذا النبأ اذ كان يتوقع منهُ ان يكون شاهدًا على ما ارتكبهُ اوريون وباولين في تسهيلهما سبيل فرار الراهبات ولما دخل السجن امر الحراس فاتوهُ بباولين وكان يعرف اباها وقد شهد بنفسهِ قتالهُ وبلاءهُ في الشام فلما رأى الفتاة اخذ يحرضها على الاعتراف بجريمة اوريون ويغريها بالوعود الطائلة ليتخذ كلامها حجة عليهما كليهما ويتهددها بالقتل اذا كتمت ما تعرفهُ اما باولين فقابلت وعودهُ بالاعراض وتهديدهُ بالاستخفاف واصرَّت على السكوت فلما آنس منها الاباء عمد الى الوعيد لفظًا وايماء وهو يحسب انهُ يخيفها فيحملها على الاقرار واخيرًا قال لها لا ينفعكِ هذا الصمت فعندي كتابة تثبت جريمتكما فاجابت قد يكون ذلك كما تقول لكني لا اصدق حتى ارى اللوح الذي تشير اليهِ واتفهم مغزاهُ قال ستريهُ قريبًا يوم تقفين في مجلس القضاء

ولم يكن عبادة يجهل ان بين النساء من تضارع الابطال الشداد في البأس والصبر والبسالة وقد رأى نساء قومهِ يخرجن الى الجهاد غير خائفات الموت ولا مكترثات للجراح لكن جميع هؤلاء كنَّ زوجات وامهات يرزن الى ساحة القتال حبًّا بزوج او ابن مدفوعات بعاطفة الدفاع عن اقرب الناس واعزهنَّ اليهنَّ واما الجواري فلا يبرحن الخباء فلما شهد من باولين ثباتها الغريب وعدم مبالاتها بوعيدهِ وقلة اكتراثها للموت اخذ العجب منهُ كل مأخذ فامر الترجمان ان يخبرها ان لا امل لها بالخلاص وان الموت عقابها فعلت وجهها الصفرة لكنها لم تبدِ اضطرابًا ولا جزعًا فعادت الى غرفتها حيث كانت المرضع بانتظارها ولما كانت شديدة الثقة ببراءتها القت اتكالها على الله وعلى ما كانت تعرفهُ وتسمعهُ من عدل قضاة المسلمين لكنها خشيت ان يكون لعبادة رأي في الحكم عليها فاستحوذ عليها القلق وجلست تنرك يديها ولم تكن تخشى المنون وانما شق عليها الموت قبل ان ترى اباها وقبل ان تبرهن لاوريون على اخلاصها في حبهِ وشدة تعلقها بهِ

وعاد عبادة فركب جوادهُ وسار في شوارع منف حتى وصل الى حيث مجلس المدينة فالتف حولهُ جمهورًا غفيرًا من الشعب فكز جوادهُ واخترق صفوفهم ولم يقف ليسأل عن علة اجتماعهم بل ظلَّ سائرًا في طريقهِ حتى بلغ الجسر فعبر النهر عليهِ الى الفسطاط

اما اهل متف فاحاطوا بالمجلس وهم يصرخون ويطلبون من مشيري المدينة العون والاسعاف في ضيقهم وكان المجلس ملتئماً وقد اقفل اعضاؤه الابواب النحاسية واقاموا الحراس على المداخل خشية ان يهاجمهم الشعب فجلسوا حيارى لا يدرون ما يفعلون واخيراً اطلّ الرئيس على الجمهور وقال ان ما تطلبونهُ منا ليس في طاقة البشر القيام بهِ انستطيع ان نزيد الفيضان او في وسعنا تخفيف ويلات الوباء وهل لنا ان نمنع فساد الاثمار. فاجاب الشعب بصوت واحد نعم انكم تستطيعون فقد وليتم احكام المدينة على شرط ان تحسنوا حكومتها. ثم اخذوا يرشقون الحجارة فتتساقط من السقف المفتوح على الاعضاء حتى اضطر هؤلاء الى التخلي عن كراسي العاج وهرعوا الى ما وراء الاعمدة والتماثيل ليتقوها ولما لم يلقَ الشعب مجيباً عمدوا الى الابواب فاخذوا يقرعونها بايديهم ليفتحوها فاستولى الخوف على من في المجلس وحسبوا ان الساعة قد اقتربت وبغتةً هدأت الجلبة وكفَّ الشعب عن الصياح ثم علت اصوات الهتاف والفرح وسمعوا الجمهور يصيح قائلاً اهلاً وسهلاً بالشيخ الحكيم اعنّا ايها الاب الصالح فعندك كنوز حكمة القدماء فادخل المجلس ودلَّ هؤلاء المثرين قساة القلوب على السبيل المؤدّي الى الخير. فتاق رئيس المجلس الى معرفة ذلك الحكيم ورؤيتهِ فتسلق سلماً واشرف على الجمهور من نافذةٍ عاليةٍ فرأى شيخاً وقوراً مترديّاً ثياباً بيضاء لامعة على حمار فارهٍ وامامهُ نفرٌ من حرس المدينة يحملون الفؤوس وقد شدوا اليها سعف النخل علامة الترحيب وفي يد الشيخ طروس صفراء قديمة العهد فصاح الرئيس لقد جاء ثم اسرع فنزل وامر بفتح الابواب فدخل ابولون وحدهُ واقفلت الابواب ولما صار في وسطهم دعاهُ الرئيس الى الجلوس في مجلسهِ ففعل كمن يحسب ذلك واجباً عليهم وحقًّا من حقوقهِ ولما استراح خاطب المجلس فقال اراني اقصر من ان اقوم بما ضاق بهِ حضرات المشيرين ذرعاً ولكني رجل قضيت العمر في درس حكمة القدماء وقد جئتكم اليوم لاطلعكم على ما كانوا يفعلونهُ في مثل هذه الاحوال عساكم تقتدون بهم فتهتدوا بهداهم وتنقذوا البلاد. ان الوباء فاشٍ في المدينة وقد مررت اليوم بالجزء الذي احترق فلقيت نحواً من خمسين مريضاً مطروحين في الشارع فاذا عملتم على ايواء اولئك المساكين برهنتم لاهل المدينة على حكمتكم واخلاصكم واهتمامكم بامرهم. فاقترح احد الاعضاء ان ينقلوا الى دير القديسة سيسيليا وقال آخر بل نضمهم في المكان الفلاني فاجاب ابولون وقال لا يحسن ان يبقى هؤلاء المرضى بين الاصحاء فوجودهم في المدينة يعرض ساكنيها للمرض ولهذه الصخراء المجاورة فائدة لا تزالون تجهلونها فالرأي عندي ان يعزل المصابون فيها. فقال الرئيس ولكننا لا نستطيع ان نتركهم عرضة للشمس المحرقة وقال آخر وليس في طاقتنا ان نبني بيوتاً لهم فيها فقال ابولون ومن يقول

بهذين القولين ان في منف شيئاً كثيراً من الكتان والاعمدة فلتنصب خيام كبيرة ينقل اليها المصابون وليتولَّ نصبها لجنة منكم وعندكم عدد كبير من النوتية الذين لا عمل لهم فاذا استأجرتموهم نصبوا الخيام في يوم واحد. فاستحسن الجميع هذا الرأي واقروا عليهِ وكان بينهم بعض تجار الكتان فعرضوا ان يقدموا ما يلزم للخيام من هذا النسيج فخرج الرئيس الى الشرفة واعلن قرارهم للشعب فتلقوا الخبر باصوات الابتهاج والحبور وفي ذلك اليوم نصبت خيمة كبيرة بقرب المدافن ونقل اليها عدد كبير من المرضى وبعد ان فرغ ابولون من النظر في امور متفرقة اخذ يبحث في حاجة البلاد الكبرى ملتزماً جانب الحذر فقال ان فيضان هذا العام من اردإ الفيضانات ومن يتأمل حوادث الشهر الفائت يعلم أن الآلهة ارادت الانتقام منا فارسلت المذنب نذير السوء وبشير الخراب علامة على غضبها ولا يخفى عليكم ان تحسين الفيضان ليس في طاقة البشر على ان القدماء كانوا اعلم منا بالنواميس التي يجري عليها هذا الكون فكانوا اذا قصر النيل عن الوفاء يقدمون لهُ ضحية ثمينة نعم ان الطبيعة البشرية تنفر من تقديم هذه الضحايا وأنا اول من يستنكف من تقديمها لكنها الوسيلة الوحيدة التي تؤدي الى الغرض المطلوب فلا بدَّ منها وهاكم الدليل قال ذلك مشيراً الى طروسهِ . فسكت الاعضاء كأن على رؤوسهم الطير ثم قال واحد وما هي الضحية يا ترى وقال آخر وهل نستطيع ان نجدها في منف فاجاب ابولون وقال عفواً اذا طلبت تأجيل الردّ على اسئلتكم الى فرصة اخرى فلا فائدة من وقوفكم عليهِ اليوم قبل ان اتحقق بنفسي اية الضحايا ترضي الآلهة . فصاح الجميع بصوت واحد بحقك قل ولا تخلنا على مثل جمر الغضا فابى ان يجيبهم الى طلبهم وقال متى حان الزمان دعوتكم الى الاجتماع وبحت لكم بما اعرفهُ من هذا القبيل ثم طلب الى الرئيس ان يعلن نتيجة مفاوضتهم للشعب فلما فعل هذا هتف السامعون وتلقوا البشارة بفرح عظيم واحسَّ اعضاء المجلس ان حملاً ثقيلاً ازيح عنهم

ولما خرج ابولون من المجلس لقيهُ الشعب بالترحاب واصوات الهتاف والاكرام فحملوهُ وهم يترنمون بمديحهِ كانهُ ازال عنهم المكروه فانقذهم من شدتهم وبدل ضيقهم بالفرج . ولما خلا بنفسهِ اخذ يتأمل ما فعل فعلم انهُ اتخذ على نفسهِ عملاً قد يؤول الى سقوطهِ لكنهُ لم يبالِ بل قال ان خلاص فيلبس من تلك الساحرة لهُ عندي المقام الاول ولو كان في خلاصهِ هلاكي . وفي طريقهِ عرج على بيت روفينس فاخبرتهُ النساء بما كان من القبض على باولين فارتاح الى هذا النبإ لكنهُ عاد فقال وهب انهم اطلقوا سراحها فانها تظل حجر عثرة في سبيلنا فلست بحائل عن عزمي حتى القيها في مهلك واستريح منها فاذا قضى عليها العرب بالموت سهلوا عليَّ القيام بعملي وسالقي عبادة فاجتهد في اقناعهِ ليصادق على ما دبَّرت لها (ستأتي البقية)